سلسلة فقه الحرب (17)

الاستراتيجية العسكرية وتصاريف السياسة في الحرب

جوزف روجر كلارك





مؤسسه النَّازعَات
Anaziat

ترجمة: مويلك الشامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الاستراتيجية العسكرية وتصاريف السياسة في الحرب

جوزيف روجر كلارك

[Military Strategy Magazine, Volume 10, Issue 1 - Winter 2025]

النازعات

رمضان ١٤٤٧

جوزيف روجر كلارك (Joseph Roger Clark)، أستاذ مشارك في العلوم السياسية في جامعة «تاوسن – Towson» في ميريلاند. وأبحاثه في مسائل الاستراتيجية، وعلاقات السلطة المدنية بالعسكرية، وما يعتري المؤسسات من تعلم وتحول في طرائق عملها.

كان العلامة **كولِن غراي** (Colin Gray) مصيبًا في قوله « إنّ السياسة هي السيدة المتصرفة»؛ فالحرب حادث سياسي. وإن كان هذا القول أكثر ما يعزى إلى **كارل ڤون كلاوزڤيتز** (Carl von Clausewitz)، لكنّ أصوله تمتد إلى **سيسِرو** (Cicero)، وثمة له نظير في مصنفات الحرب عند قدماء الصينيين[١]. لكنّ تصاريف السياسة في الحرب كثيرًا ما لا تدرك حق إدراكها في الاستراتيجية العسكرية. ولذا يُفهم عجز الدول في الأزمنة الأخيرة عن إحكام استعمال القوة العسكرية لبلوغ مقاصدها السياسية. وهذا يومئ إلى الحاجة إلى استراتيجية عسكرية تقوم على فهم أرهف وأدق لتصاريف السياسة في الحرب.

والحرب جملة متناسقة من الوقائع السياسية والعسكرية. فالمحيط السياسي الذي يذكي نارها ويبعث عليها هو الذي يشكّل «مراكز الثقل» الاستراتيجية للمتقاتلين[*]، ويصوغ المنطق الاستراتيجي الذي تسير عليه الحرب. إلا أنّ

---

[1] Colin S. Gray, *The Future of Strategy* (Polity, 2015); John Vasquez, *The War Puzzle* (Cambridge University Press, 1993), 29; Quincy Wright, *A Study of War* (University of Chicago Press, 1964), 6; Ralph D. Sawyer, *The Seven Military Classics of Ancient China*, Ralph D. Sawyer, trans. (Basic Books, 1993).

[*] مركز الثقل (centers of gravity) مصطلح عند أهل الصنعة للدلالة على الأصل الجامع والمركز الحاكم الذي يدور عليه أمر الجيش، ويستند إليه في قواه، وتنبعث منه قدرته على المدافعة والمقاومة، صغرت تلك القوة أو عظمت، وقلّت أو كثرت، وتفرعت أو اجتمعت. فهو عندهم بمنزلة القلب من الجسد، وقاعدة البناء من أركانه؛ إن هُدم ذلك الركن انهدم ما عليه من البنيان، وإن أصيب القلب خرّ الجسد. وأول مَن وضعه وبسط القول فيه كلاوزڤيتز في سفره المشهور، إذ شبّه الحرب بجملة من القوى المتدافعة كالأجرام الثقيلة في الفضاء، لكل منها جاذبية تُرَدّ إليها حركاتُه وتُفسّر بها

التصاريف السياسية التي تنشئ الحرب لا تنقضي بانطلاق النيران وتبادل الضراب، بل تظل جارية بعدها. فالحوادث العسكرية وتأويلاتها تؤثر في تلك التصاريف السياسية، وهذه تؤثر في نجاعة القوة العسكرية وأثرها. فعلى الاستراتيجية العسكرية الإحاطة علمًا بهذه العلائق المتراجعة، وأن تكون لها مستجيبة مراعية. وفصل النظر في الأحوال السياسية عن صلب الاستراتيجية العسكرية يعرّض مقصد الحرب لخطر عظيم.

سكناته، فجعل «مركز الثقل» موضع الجاذبية العظمى، التي إن ضُربت في صميمها اختل التوازن وسقط العدو عن مقامه. ولم يقصد كلاوزفيتز بمركز الثقل أمرًا واحدًا ثابتًا في جميع الأحوال، فليس بالضرورة أن يكون موضعًا جغرافيًّا، ولا هيئة مادية مشاهَدة، بل يختلف باختلاف الزمان والمكان وطبيعة الجيش وموضع المعترك؛ فقد يكون جيشًا بعينه هو الذي يستجمع قوى الخصم ويكفل له القدرة على البقاء، وقد يكون حليفًا له يُقيمه، أو مدينة بعينها تكون قلب الدولة، أو إرادة الحاكم إذا كانت إرادة نافذة مستبدة، أو ثروة عظيمة يستمد منها عدته وعديده، أو رأيًا عامًّا ينعقد عليه سكون الشعب أو حماسته، أو معنًى من المعاني المجتمعة في النفس أو الدولة أو القيادة، كالإرادة والعقيدة. فإن كانت هي مستودع القوة وباعث الصبر فهي أولى بالمواجهة من غيرها. وعليه، فمعرفة مركز الثقل من أعظم ما يُطلب لقادة الحروب وأرباب التدبير؛ إذ هو الذي يوجه نحوه الجهد، ويناط به التدبير، ويبنى عليه الرجاء في الظفر. فمن أخطأ في تقديره شقيَ بحربه، وربما فاز بالمعارك جولة بعد أخرى وهو لا يدري أنه يحوم على الأطراف ويدع القلب سليمًا. وحاصل مركز الثقل أنه أعظم مصدر لقوة العدو، والذي به يثبت ويقاتل، وعليه يعتمد في بلوغ غاياته، فإن أُصيب، تهاوى ما بُني عليه، وانفرط عقد قدرته.

وسيأتي –بعون الله– في قادم هذه السلسلة بحث مفصّل في هذا المفهوم. [مويلك]

وحاصل القول: على الاستراتيجيات العسكرية إدراك تصاريف السياسة في الحرب إدراكًا حسنًا تامًّا. وليس المراد بالتصاريف السياسية مجرد الأحوال السياسية؛ إذ قلّ أن تجد من أهل الصنعة أو أرباب النظر مَن يزعم أنّ الاستراتيجية العسكرية في غنى عن اعتبار السياق السياسي، كما لا تكاد تجد مثالًا لاستراتيجية عسكرية عرية عن العناية في الشأن السياسي، لكن الذي يغيب في الأغلب هو استحضار العلائق المتطورة المتراجعة –أي التصاريف السياسية– القائمة بين وجهي الحرب: السياسي والعسكري.

في تعاقب الحرب وتداخلها

عماد هذا القول منازعة كامنة في شأن الحرب السياسي والعسكري: أهما حادثان متعاقبان أَم متداخلان؟ والذي يُفهم من مسالك الجيوش الغربية أنّ الرأي الغالب عندهم هو التعاقب (الخطية)(*)؛ فعلى هذا النظر تكون الوقائع السياسية باعثة على قرار الحرب، ثم تكون الوقائع العسكرية منشئة لاستعداد لقبول تسوية سياسية. لكنّ الفقه الأقوم للحرب –ولا سيما في عالم معولم تشاهد فيه جماهير ذات خطر استراتيجي الوقائع ساعة وقوعها وتؤولها آنًا

(*) الخطية (linearity) في سياق الاستراتيجية يراد بها: سير الأحداث أو النتائج على نحو متوقع ومنظم، بحيث تكون العلاقة بين السبب والنتيجة مباشرة، وثابتة، ومتناسبة؛ وهْم النظام البسيط. أما حقيقة الواقع الاستراتيجي: نظام تتشابك فيه العوامل وتتداخل، ويعسر فيه استشراف المآلات بدقة. [مويلك]

فآنًا– أن يقال: إنّ الشأنين السياسي والعسكري فيها متداخلان لا ينفك أحدهما عن الآخر. وبهذا الاعتبار تكون قرارات الحرب وليدة وقائع سياسية وعسكرية معًا، وتكون الأحداث السياسية مؤثرة في نجاعة القوة العسكرية، وتكون الأحداث العسكرية مؤثرة في الإرادة السياسية، ويكون القبول بالتسويات السياسية ناشئًا من تفاعل هذين الشأنين وتداخلهما.

وأما القول بالتعاقب فمأخذه ظن بإمكان فصل السياسي عن العسكري في الحرب، **فيثبت** الأول على حال واحدة، ويُفرَد الثاني **بالمعالجة** على أنه مسألة فنية صرفة: كيف يغلب العدو. ويبدو أنّ المحاولات الغربية لفصل التصاريف السياسية عن الاستراتيجية العسكرية تنسب إلى أنتوني هنري **جوميني** (Antoine-Henri Jomini) عصريِّ كلاوزفيتز في القرن التاسع عشر؛ إذ ذهب جوميني إلى أنّ فن الحرب مستقل عن الاعتبارات السياسية أو الأخلاقية، وأنه يختصر في خمسة أصول جامعة[1]. وفي قوله مسعى إلى انتزاع الاستراتيجية العسكرية –بل الحرب– من سياقها السياسي المتحرك. ثم في القرن العشرين تداخل هذا الرأي مع حجج صامويل هنتنغتون (Samuel Huntington) في شأن الجيوش المحترفة وعلاقاتها بالسلطة المدنية، حتى استقر في أذهان كثيرين أنه إذا شمّرت الحرب عن ساقها وجب على أهل الحكم تحديد الغاية السياسية ثم

---

[1] Antoine-Henri Jomini, *The Art of War*, G.H. Mendell and W.P. Craighill, trans. (The Project Gutenberg, 2004), 66.

التفويض إلى القادة العسكريين السعي في تحصيلها[١]. فكان في حجج جوميني وهنتنغتون أصل القول بأنّ للاستراتيجية العسكرية التعامل مع السياق السياسي للحرب على أنه ثابت لا يتبدل.

ثم في النصف الثاني من القرن العشرين أفضى شيوع هذا الرأي التعاقبي إلى نشوء ذهنية «قائد المئين» (centurion)[*] في الجيوش الوطنية، ولا سيما في البلاد الغربية حيث تعد عزلة الجيش عن السياسة سنة مَرعية [أصل متّبع؟]، تعنى بإحكام التكتيكي والعملي من الحرب، وتُغفل –من حيث لا تشعر– ما يعتور الاستراتيجية من تصاريف السياسة وتقلباتها[٢]. ومن ثَم نشأت عقائد عسكرية

---

[1] Samuel P. Huntington, *The Soldier and the State: The Theory and Politics of Civil-Military Relations* (Harvard University Press, 1957)

[*] السنتوريون (centurion): لفظ لاتيني يعني «المئة – centuria»، وهو عند الروم صاحب مئة من الجند، تناط به سياسة الصف، وتقويم العسكر وتدريبهم، وإحكام أمرهم في مواقف القتال. ولم يكن من أهل الرأي في تدبير الحرب على وجهها الكلي، ولا ممن يعنى بمقاصدها العليا، وإنما شرفه في حسن الضبط، وجودة التنفيذ، واستقامة الطاعة. ثم استعير الاسم في كلام المحدَثين ليدل على ضرب من الذهنية العسكرية تعلي شأن الميدان، وترى الظفر في الوقائع يغني عن إحكام النظر في العواقب والمآلات. [مويلك]

[٢] وعلى خلاف ذلك، انظر إلى ما كان يلقنه الضباط في سالف الأجيال من أصول التدبير، مما نشره فوكس كونر (Fox Conner) في أوائل عهد ضباط صار لهم بعد شأن عظيم مثل جورج مارشال (George Marshall)، ودوايت آيزنهاور (Dwight D. Eisenhower)، وجورج باتون (George S. Patton)، في مطلع مسيرتهم العسكرية. انظر:

Edward Cox, Grey Eminence: Fox Conner and the Art of Mentorship (New Forums Press, 2011); Jason W. Warren, "The Centurion Mindset and the Army's Strategic

مبنية على افتراض أنّ الظفر في المعترك يجر بطبعه الظفر السياسي جرًّا لا محالة. ولمّا كانت العقيدة عماد التدريب والتطوير نشأت حلقة تثبّت نفسها وتحفظ غلبة الرأي التعاقبي. وآثار هذه الذهنية وغلبة ذلك الرأي تجدها في منشورات الجيوش الغربية، كتصور جيش الولايات المتحدة لعمليات البر الموحدة، و«كتاب الدفاع الأبيض – Defense White Paper» الصادر عن كوريا الجنوبية سنة ٢٠٢٢م[*]، ومنهج العمليات متنوعة المجالات عند الجيش الاتحادي الألماني[١].

Leadership Paradigm," Parameters 45:3 (Autumn 2015), 27-38, doi:10.55540/0031-1723.2740.

[*] كتاب الدفاع الأبيض (Defence White Papers): يراد به وثائق رسمية تصدرها وزارات الدفاع، تعرض فيها: استراتيجية الدفاع الوطني (كيف ترى الدولة بيئتها الأمنية، وما التهديدات المحتملة)، وأولويات السياسة الدفاعية (البحرية، الأمن السِبراني، الطيران...إلخ)، وخطط تطوير القوات المسلحة (التحديثات المطلوبة في المعدات، والعتاد، والتسليح، والتنظيم)، والميزانية العسكرية (مقدار إنفاق الدولة على الجيش في الأعوام القادمة)، والعلاقات الدولية والتحالفات (نظر الدولة إلى تعاونها العسكري مع الآخرين). والغرض منها: توجيه الجيش بوضع نهج للمستقبل، وطمأنة الحلفاء بأنّ الدولة لديها تدبير واضح، وردع الخصوم بعرض القدرات والنيات، وتوضيح المنهج للداخل والخارج بقدر من الصدق. [مويلك]

(1) Army Doctrine Publication No. 1: The Army (Washington, DC: Department of the Army, 2019); Army Doctrine Publication No. 3: Operations (Washington, DC: Department of the Army, 2019); 2022 Defense White Paper (Seoul: Ministry of National Defense, 2022); Multi-Domain Operations for the Bundeswehr (Berlin: Bundeswehr Office for Defence Planning, 2024).

وخلاصة الأمر أنّ العقيدة الغربية -في الجملة- تعرض نظرية في كسب الحروب قائمة على التعاقب؛ إذ يفترض أنّ قوات العدو تحدد مواقعها، وتهيأ مواقع القتال بما يرجح كفة القوات الصديقة، ثم يُحاط بقوى العدو وتُرهق حتى تُقهر[١]. وهذا مبني على افتراض أنّ الوقائع العسكرية تفضي إلى خضوع سياسي من العدو وتحرز موضوع الحرب السياسي. لكنّ صلاح هذا الافتراض في سياقه، وعلة ترتب الأثر السياسي على الفعل العسكري وكيفيته، قلما يُنظر فيه نظر فحص وتمحيص؛ إذ تضع ذهنية «قائد المئين» هذه المسائل خارج نظر الاستراتيجيين العسكريين.

تبيّن حوادث التاريخ القريب على ما يلازم الأذهان والعقائد التي تعلي شأن الأعمال التكتيكية والعملياتية وسلوكها من أخطار إذا لم يراعَ ما بين الحرب والسياسة من علائق ووشائج. فعجزُ الأمريكيين في الحرب على أفغانستان عن إدراك تداخل الحرب حال دون وضع استراتيجية عسكرية تفضي إلى الآثار السياسية اللازمة لبلوغ مقصد الولايات المتحدة السياسي. وكذلك في آخر حروبها في العراق كأنّ الولايات المتحدة خاضت حربين: حربًا نظامية وأخرى تمردية. فعلى حين أفضت الاستراتيجية العسكرية الأمريكية إلى قهر الجيش

---

(1) Antulio J. Echevarria II, *Reconsidering the American Way of War: US Military Practice from the Revolution to Afghanistan* (Georgetown University Press, 2014), p. 4; Army Doctrine Publication No. 1: The Army; 2022 Defense White Paper; Multi-Domain Operations for the Bundeswehr.

العراقي، لكنّ إغفال التصاريف والأحوال السياسية العاملة حينئذ حال دون تسخير النصر العسكري في تحقيق المقصد السياسي، وهو عراق ديمقراطي مستقر[١]. فوجدت نفسها في حرب تمرد. وفي طور تلك الحرب، قدم الجنرال **ديڤيد باتريوس** (David Petraeus) استراتيجية أدق نظرًا –وإن بقيت محدودة– في اعتبار تصاريف الحرب السياسية؛ فمكن ذلك من تثبيت المجالين العسكري والسياسي للنزاع، إلا أنّ استراتيجيته لم تفلح في إحراز الأهداف السياسية التي أعلنتها واشنطن في مطلع الحرب[٢].

وتشهد الوقائع الجارية كذلك على وجوب إحكام الاستراتيجية العسكرية وإحاطتها بالتصاريف السياسية للحرب إحاطة تامة. فانظر إلى ما يجري في

---

(1) "President Bush Announces Start of Iraq War," televised address, Mar. 19, 2003, | C-Span, YouTube publ. online Mar. 19, 2013, accessed Jul. 3, 2024; "President Bush Discusses Freedom in Iraq and Middle East," whitehouse.gov, publ. online Nov. 6, 2003.

(٢) تبدلت مقاصد الولايات المتحدة السياسية في العراق مع تعاقب الأيام. ففي البداية عرضت إدارة جورج بوش (George W. Bush) مقاصد قصوى، كان منها تحويل العراق إلى دولة ديمقراطية مستقرة. ثم ما لبثت تلك المقاصد أن انحسرت إلى غايات أصغر، فصار المراد عراق مستقر بحيث يتهيأ خروج القوات الأمريكية، ويحال دون وقوع البلاد تحت سيطرة إيران أو جماعات جهادية. وقد يتخذ اضطراب المقاصد السياسية عذرًا لقصور الاستراتيجية العسكرية، لكنّ الاحتجاج بذلك يكشف عن إخفاق تلك الاستراتيجية في احتساب ما تحدثه وقائع المعترك من آثار سياسية. كما أنّ تقلب المقاصد السياسية يظهر الطبيعة المتداخلة للحرب؛ إذ ليست السياسة فيها تاليًا للقتال فحسب، بل تجري معه جنبًا إلى جنب، تتأثر به وتؤثر فيه.

قطاع غزة. فإنّ في الأمر ما يدعو إلى القلق من أنّ استراتيجية إسرائيل العسكرية في الرد على هجمات «حماس» الهمجية في تشرين الأول ٢٠٢٣م قد لا تراعي حق المراعاة التصاريف السياسية للحرب. فلو أنّ إسرائيل دمرت «حماسًا» –وهو حدث عسكري ينفع بني البشر[*]– لعل استراتيجيتها الراهنة تفضي إلى ظفر بيروسي[*]؛ إذ قد تخفق في تحصيل الغاية السياسية، وهي تأمين إسرائيل من اعتداءات مقبلة[١]. فإنّ تأويل الجماهير الاستراتيجية خارج إسرائيل لِما تراه من وقائع عسكرية قد يترك إسرائيل أقل أمنًا.

وكذلك تظهر حرب الروس والأوكران منزلةَ إدخال التصاريف السياسية في قلب الاستراتيجية العسكرية. فعلى مدى قريب من ثلاث سنين، تجلت الآثار المتراجعة لتداخل الوقائع العسكرية والسياسية في هذه الحرب. فقد أفضت نتائج المعترك في أوكرانيا إلى قرارات سياسية بشأن تقديم المعونة المالية، كما أفضت إلى قرارات سياسية في إمداد أنظمة السلاح وتشغيلها. ثم عادت تلك الوقائع السياسية فأثرت في نجاعة القوة العسكرية، وأنتجت وقائع عسكرية

(*) بل يخزيكم الله إن شاء الله. [مويلك].

(*) النصر البيروسي (pyrrhic victory): منسوب إلى بيروس ملك إبيروس، ظفر بالروم ظفرًا أذهب جنده وأوهن قوته، حتى قال: «إن ظفرنا مثلها هلكنا». فذهبت مثلًا للظفر إذا استجلب بكلفة فادحة بحيث تفضي إلى ضياع المقصد أو إضعاف صاحبها إضعافًا يشبه الهزيمة. [مويلك].

(1) Isabel Debre, Julia Frankel, and Samy Magdy, "Netanyahu says the Gaza war has entered a new stage and will be 'long and difficult'," AP, Oct. 28, 2023.

جديدة: فحطت من حدة الهجوم الروسي، ويسرت الهجوم المضاد الأوكراني، وأبقت كييف في ساحة القتال.

الوظيفة السياسية والصورة الاستراتيجية

الغاية القصوى من الاستراتيجية العسكرية الظفر السياسي. فالحرب منازعة عنيفة على مقصد سياسي، والنجاح فيها تقومه الأمم وقادتها بميزان السياسة لا بميزان العسكر. ويجلي ذلك الحوار المشهور في نيسان ١٩٧٥م بين العقيد الأمريكي **هاري سمرز** (Harry Summers) ونظيره من ڤيتنام الشمالية، العقيد **ڤان تاين دونغ** (Văn Tiến Dũng)؛ إذ قال هاري سمرز متندرًا: «إنكم لم تغلبونا في ساحة القتال قط»، فأجابه الڤيتنامي: «قد يكون ذاك، ولكنه أمر خارج محل النزاع»[١]. فقد بلغ الڤيتناميون مقصدهم السياسي، ولم يبلغه الأمريكيون. فلا بد للاستراتيجية العسكرية الناجحة أن تبنى على تصاريف الحرب السياسية وأحوالها، وأن تفصّل على قدرها تفصيلًا.

والشروع في فهم الديناميات السياسية لأي حرب يكون باستقصاء سببها القريب. فمنذ عهد **ثوسيديديس** (Thucydides) والعلماء يتطلبون علة إقدام القادة السياسيين على الحرب: أهو الخوف أَم الشرف أَم المصلحة؟ أهي الديانة

---

[1] Harry G. Summers, "Interview: General Frederick C. Weyand / American Troops Who Fought in the Vietnam War," Historynet, June 12, 2006; David T. Zabecki, "Colonel Harry G. Summers, Jr., was a Soldier, Scholar, Military Analyst, Writer, Editor, and Friend," The Clausewitz Homepage.

أَم المال أَم المجد؟ أَم فوضوية النظام الدولي، وتوازن القوى، وتوزيع الثقافات؟ قد تعد هذه وأشباهها أسبابًا كامنة، لكنها لا تفسر قرارًا بعينه إلى الحرب، ولا هي مما تصاغ عليه استراتيجية عسكرية. فالاستراتيجية المسددة تحتاج إلى إدراك التصاريف السياسية التي تنشئ الأسباب القريبة لنزاع مخصوص.

وقول كلاوزڤيتز «الحرب استمرار للسياسة» أصل نهتدي به إلى فهم منزلة تلك الأسباب القريبة. ففي كل دولة تنشئ الوقائع السياسية الداخلية -ومن جملتها التأويلات الداخلية للأحداث الدولية- مقاصد سياسية ترجى. وتكسب هذه الوقائع تلك المقاصد أقدارها النسبية، فتضع ترتيب أولويات للأهداف السياسية. وهي كذلك تولد الوسائل لابتغاء تلك الأهداف، وتختار السبل التي يتوسل بها إليها. فإذا تعارضت المقاصد المقدمة عند أمم شتى تعارضًا لا يلتئم، ولدت تصاريف السياسة أقطابًا متباينة -مجالات تصورية أو سلوكية متضادة- يقوم بعضها في وجه بعض قيام المنافرة. ومن مثل هذه الوقائع السياسية تنبثق الأسباب القريبة للحرب.

يظهر من بعض أهل الصنعة والنظر أنهم يفهمون قول كلاوزڤيتز «الحرب استمرار للسياسة» يعني أنها ليست إلا أداة من أدوات المسار السياسي أو تصعيدًا له(١). ومثل هذا الفهم يعضد النظر التعاقبي للحرب، ويثبت وهمَ

---

(1) Martin van Creveld, *The Transformation of War* (The Free Press, 1991), 125, 142; Lawrence Freedman, "The Meaning of Strategy, Part I: The Origins," Texas National

إمكان فصل الاستراتيجية العسكرية عن التصاريف السياسية للحرب، لكن لقول كلاوزفيتز وجهًا آخر محتملًا.

يكثر كلاوزفيتز في كتابه «عن الحرب» الحديث عن كون الحرب جملة وقائع سياسية وعسكرية تجري معًا. فيجعل المقصد السياسي علة الحرب، ويرى استعمال القوة وسيلة للتأثير في قيمة المقاصد السياسية. ويقرر أنّ الحرب لا تكون حدثًا معزولًا قط، ولا هي مقصورة على الجيوش، بل إذا تحاربت الأمم دخلت معها في غمارها شعوبها بأسرها. وينص على أنّ القيمة السياسية للأهداف العسكرية يتعين دخولها في صميم النظر الاستراتيجي[١]. وفي قوله هذا إقرار بأنّ الوقائع العسكرية لا تقف آثارها عند حد بل تعود فتؤثر مرارًا في تقدير المقاصد السياسية وقيمتها، فينشأ من ذلك منطق استراتيجي [تعاقبي] تؤثر فيه الوقائع العسكرية في الأحوال السياسية، وهذه تؤثر في القرارات العسكرية، ومن جملتها قرار المضي في القتال. وهكذا يصور كلاوزفيتز الطبيعة المتداخلة للحرب؛ فهي **استمرار** السياسة **مع** القوة المسلحة.

ولمّا كانت الحرب استمرارًا للسياسة، وجب على الاستراتيجية العسكرية إدخال تصاريف السياسة في حسابها. فهذه التصاريف والأحوال هي التي

Security Review, 1:1 (Nov. 2017; Sean McFate, *The New Rules of War* (William Morrow, 2019), 221-222; Lawrence Freedman, *Strategy: A History* (Oxford University Press, 2013), 86-88.

(1) Carl von Clausewitz, *On War*, Michael Howard and Peter Paret, trans. And eds. (Princeton University Press, 1984), 75-89, 149, 156-169.

تشكّل إرادة المتحاربين -بل إرادة مَن يُحتمل تحاربهم- وجهدَهم؛ أي مراكز ثقلهم الاستراتيجية. وقد تجلى هذا المعنى في كتابات رجال من أهل الصنعة والنظر؛ فهو قوام حجة الاستراتيجي الروسي الشهير **ألكسندر سقيكين** (Alexander Svechin)، إذ رأى أنّ كل حرب فريدة في بابها، وأنّ الاستراتيجية العسكرية يجب تفصيلها على قدر تصاريفها السياسية واستثمارها قدر الإمكان[1]. ولذلك قال **جوزيف كالدوِل وايلي** (J. C. Wylie) إنّ الاستراتيجية العسكرية ينبغي أن تكون موضع عناية مَن هم خارج المؤسسة العسكرية، وقال **بِرنارد برودي** (Bernard Brodie) لا ينبغي تركها للجيش وحده. ولهذا أيضًا ذهب **إليوت كوهين** (Eliot Cohen) -منازعًا هنتنغتون- إلى أنّ على القادة السياسيين إقحام أنفسهم في قلب الاستراتيجية والعمليات العسكرية لبقاء القادة العسكريين على وجهة المقصد السياسي[2].

تصاريف السياسة ومركز الثقل الاستراتيجي

تصاريف السياسة تشكّل «مراكز الثقل» الاستراتيجية في الحرب؛ فهي أصل الإرادة في القتال، وأس الجهد المبذول فيه. ومن ثَم تكسى الحرب منطقًا استراتيجيًّا يتجاوز النظر التعاقبي؛ إذ تنشئ أحوالًا ينال فيها الظفر لا بقهر قوة

---

(1) Aleksandr A. Svechin, *Strategy* (East View Information Services, 1991), 69, 74, 81-83, 91-101.

(2) J.C. Wylie, *Military Strategy: A General Theory of Power Control* (Naval Institute Press, 1989), 7-13; Bernard Brodie, *Strategy in the Missile Age* (RAND Corporation, 1959), 6-20.

العدو فحسب، بل بإصابة أصل إرادته و (أو) أساس جهده إصابة توهنه أو تبطله.

ومنطق السببية في استهداف مركز ثقل العدو الاستراتيجي مبني على افتراض أنّ الإرادة في القتال وصورة الجهد ودرجته ثمرة قيمة المقصد السياسي الذي تدور عليه الحرب. لكن للأمم مقاصد سياسية شتى، لكل منها قيمة ذاتية وأخرى نسبية. وتوزيع التكاليف والمنافع في تقديم مقصد على آخر يؤثر في مقدار التأييد السياسي، وذلك يؤثر في اختيار السياسات، ومن جملتها قرار القتال، ومقدار الشدة فيه، وأدواته. ثم إنّ الجهد نتاج قرارات تتعلق بتعيين الأدوات المستعملة، وكيفية استعمالها، ولأي أثر يقصد بها. وهذه الاختيارات حصيلة أحوال سياسية داخلية وخارجية للمتقاتلين. وكيفما انتظمت هذه الاختيارات في مقابلة اختيارات العدو تشكل لكل فريق مقامه الاستراتيجي النسبي، أعني قدرته على التأثير في الحال حتى يحرز مقصده السياسي[١].

ولـمّا كانت تصاريف السياسة تؤثر في الإرادة والجهد، وجب على الاستراتيجيات العسكرية مراعاتها. فإن أسفرت الوقائع السياسية عن تأييد عريض للمقصد السياسي المتنازع عليه –لِما يرى له من عظم القيمة النسبية– أمكن اعتماد استراتيجيات عسكرية مكثفة الموارد. أما إذا أثمرت الوقائع

(1) Eliot A. Cohen, *Supreme Command: Soldiers, Statesmen, and Leadership in Wartime* (Free Press, 2002)

السياسية تأييدًا محدودًا، ضاقت موارد الاستراتيجيات العسكرية. وكذلك إذا أفضت الاستراتيجية العسكرية إلى نجاحات ميدانية ترى معززة لاحتمال الظفر السياسي، غلب على الظن تخصيص القادة مواردهم بما يساند تلك الاستراتيجية والجهد القائم. وبالضد: إن عدت الوقائع الميدانية قاصرة عن تحقيق الظفر السياسي، نحا القادة نحو قرارات في الموارد تفضي إلى تغيير الاستراتيجية أو تعديل الجهد.

وقد نبه **أنتوليو إچقاريا** (Antulio Echevarria) منذ عشرين عامًا إلى أنّ مفهوم مركز الثقل لا يحيل إلى منابع القوة عند المتحارب، بل إلى العناصر أو القوى التي تولد الجهد. وفي هذا فرصة مغرية لأهل الاستراتيجيا؛ إذ لو أصيب مركز ثقل العدو إصابة كافية تعطل تلك العناصر، لانهدمت قدرته على توليد الجهد[١]. وفي عقود من الجدال الشديد حول إمكان بلوغ ذلك بالاستراتيجية العسكرية أو كيفيته، انصرف معظم النظر إلى مراكز الثقل عملياتيًّا[٢]، لكنّ الاستراتيجيات العسكرية القائمة على النظر المتداخل للحرب للنظر في كيفية استهداف العلائق المتراجعة بين العناصر السياسية والعسكرية عند الخصم، حتى

---

[1] Sherman Kent, *Strategic Intelligence for American World Policy* (Princeton University Press, 1966), 40-41.

[2] Antulio J. Echevarria, II, "Clausewitz's Center of Gravity: It's Not What We Thought," *Naval War College Review* 56:1 (Winter 2003)

ينهار جهده من أساسه. وتمثل الحرب الدائرة اليوم بين روسيا وأوكرانيا مثالًا لِما يمكن أن يكون عليه ذلك.

تصاريف السياسة في حرب الروس والأوكران

الحرب الجارية اليوم بين الروس والأوكران مثال جلي على الطبيعة المتداخلة للحرب؛ إذ تظهر العلائق المتراجعة بين الوقائع السياسية والعسكرية، وتكشف كيف تؤثر الأحوال السياسية في المنطق الاستراتيجي للحرب، وتؤكد أنّ على الاستراتيجية العسكرية إدراك تصاريف كل حرب وإدخالها في حسابها إدخالًا تامًّا.

رغبة روسيا في إنزال أوكرانيا منزلة الدولة التابعة، ورغبة أوكرانيا في صون سيادتها، هما السببان القريبان لهذه الحرب[١]. وعلى هذين المقصدين السياسيين بنيت الاستراتيجية العسكرية الروسية في أول الأمر، على افتراض أنّ الجيش الأوكراني هو مركز ثقلها الاستراتيجي[٢]. ثم تبينَ فساد هذا الافتراض. ففي

---

[1] Echevarria, "Clausewitz's Center of Gravity: It's Not What We Thought,"; Dale C. Kikmeier, "After the Divorce: Clausewitz and the Center of Gravity," Small Wars Journal, March 6, 2014; Lawrence Freedman, "Stop Looking for the Center of Gravity," War on the Rocks, June 24, 2014; Jeff Becker and Todd Zwolensky, "Go Ahead, Forget Center of Gravity…," War on the Rocks, July 9, 2014; Steven D. Kornatz, "The Primacy of COG Planning: Getting Back to Basics," *Joint Force Quarterly* 82:3 (July 2016).

[2] "Annual Address to the Federal Assembly of the Russian Federation," President of Russia, Apr. 25, 2005; "Speech and the Following Discussion at the Munich Conference on Security Policy," President of Russia, Feb. 10, 2007; "Article by Vladimir Putin 'On the historic unity of Russians and Ukrainians'," President of

الساعات التي أعقبت الغزو كان رئيس أوكرانيا **ڤولديمير زيلينسكي** (Volodymyr Zelenskyy) مركز الثقل الاستراتيجي لأوكرانيا؛ إذ أثمرت أفعاله –من إبائه الإجلاء، ونشره المقاطع المتحدية– تعبئة أبناء بلده وإلهام الجماهير الاستراتيجية في الغرب(١).

فحاولت الاستراتيجية الروسية تعديل مسارها بعد هذا الحدث السياسي، فزادت مساعيها لقتل زيلينسكي أو أسرِه(٢). لكنها لم تدرك التصاريف السياسية التي رفعت قيمة سيادة أوكرانيا في ميزان الأمم الغربية فوق غيرها من المقاصد، ومنها قيمة المودة مع روسيا.

ولـمّا ارتفعت القيمة النسبية لسيادة أوكرانيا، قررت الدول الغربية زيادة دعمها المالي والعسكري لكييف، فاشتد بذلك الجهد الذي استطاعت به

Russia, Jul. 12, 2021; Pål Røren, "The Belligerent Bear: Russia, Status Orders, and War", International Security, vol. 47, no. 4 (Spring 2023), pp. 7-49; "Address by the President of Ukraine," President of Ukraine, Feb. 24, 2022; "We Continue to Fight, We Will Protect Our State and Liberate Our Land," President of Ukraine, Mar. 4, 2022; "Do Everything You Can for Us to Withstand Together in this War for Our Freedom and Independence," President of Ukraine, Apr. 3, 2022.

(١) ينقل معهد دراسة الحرب (Institute for the Study of War) نقلًا وافرًا مفتوح المصادر للوقائع العسكرية في حرب الروس والأوكران.

(2) Sharon Braithwaite, "Zelensky refuses US offer to evacuate, saying 'I need ammunition, not a ride'," *CNN*, Feb. 26, 2022; Robert Mackey, "Zelenskyy posts defiant videos from the streets of Kyiv as Putin's forces close in," *The Intercept*, Feb. 25, 2022.

أوكرانيا مقاومة التقدم الروسي[١]. فردت موسكو بتشديد عملياتها، وضرب أهداف مدنية، رجاء أن يكون الشعب الأوكراني مركز ثقل محتملًا، وأن تفضي تلك الضربات إلى كسر إرادته وانهيار مقاومته[٢]. لكنّ الاستراتيجية الروسية أخفقت مرة أخرى في اعتبار التصاريف السياسية للحرب؛ إذ ظل الأوكرانيون يومئذ يقدمون سيادتهم وهويتهم الوطنية على أمنهم وسلامتهم.

وعلى امتداد الحرب بدلت التصاريف السياسية مراكز الثقل الاستراتيجية عند أوكرانيا وروسيا: فبينما سعت الاستراتيجية الروسية إلى استنزاف وسائل أوكرانيا في المقاومة، مضت الحكومات الغربية إلى مضاهاة جهود موسكو ثم مجاوزتها، فتهيأت بذلك فرصة الهجوم المضاد الأوكراني. وكان جهد كييف العسكري ثمرةَ وقائع سياسية: إرادة شعبها في القتال، واستعداد شعوب الغرب لإمدادها بوسائل متزايدة لخوض الحرب. وأما مركز الثقل الروسي فكان في

---

[1] Timothy Bella, "Assassination plot against Zelensky foiled and unit sent to kill him 'destroyed,' Ukraine says," *The Washington Post*, Mar. 2, 2022; Yuliya Talmazan, "Zelenskyy says he survived no fewer than 5 Russian assassination attempts," *NBC News*, Nov. 21, 2023; Alexandra Sharp, "Kyiv thwarts alleged Russian-backed assassination attempt on Zelensky," *Foreign Policy*, May 7, 2024.

[٢] وقد تضمنت تقاريره في صيف ٢٠٢٢م بيانًا لنشاط القوات الروسية، وفيها دلائل على تحول في فعلها العسكري من هجوم بري متقدم إلى الدفاع، مع ضربات عقابية على أهداف مدنية. انظر:
Ukraine Conflict Updates 2022, Institute for the Study of War; "Ukraine: High Commissioner updates Human Rights Council," Press Release, United Nations, Jul. 5, 2022; "Ukraine: Civilian casualties – 24 February 2022 to 30 June 2023," Press Release, United Nations, Jul. 7, 2023; "'No region of Ukraine spared' by Moscow's War on Ukraine, Senior Official Tells Security Council, Reporting of Widespread Destruction, Civilian Deaths," Press Release, United Nations, Apr. 11, 2024.

بادئ الأمر قائمًا على القيمة النسبية لإخضاع أوكرانيا، وعلى نجاعة قواتها المسلحة. فلمّا استنزفت مخازنها من الذخائر المهمة، لجأت موسكو إلى حال سياسية دولية قوامها مناهضة الغرب والاعتراض على النظام الدولي الليبرالي، فنتج من ذلك قرارات لدى إيران وكورية الشمالية والصين بإمداد روسيا بوسائل متزايدة(١). ومع أنّ موسكو أقل اعتمادًا من كييف على العون الخارجي، لكن كلاهما أحسنَ توظيف الوقائع السياسية لإدامة الجهد العسكري.

وهكذا أثرت تصاريف السياسة في هذه الحرب –وستظل تؤثر– في جهد كل فريق ونجاعته. وبعد مضي قريب من ثلاث سنين، ما تزال أوكرانيا وروسيا تمضيان في طلب مقاصدهما السياسية، لأنّ أممًا أخرى ما برحت تضفي عليها قيمة نسبية عالية. أيدوم ذلك أَم يتبدل؟ ذاك سؤال مفتوح. وفيه دلالة على منطق استراتيجي مؤداه أنّ الظفر أو الخسران –في مثل هذه الأحوال– رهينان بالمحافظة على القيمة النسبية للمقاصد السياسية لدى الجماهير الاستراتيجية، في الداخل والخارج، سواء في روسيا أو أوكرانيا.

---

(1) Edward Wong and Julian E. Barnes, "Kim Jong-un and Putin plan to meet in Russia to discuss weapons," *The New York Times*, Sep. 4, 2023; Warren P. Strobel and Michael R. Gordon, "How Putin rebuilt Russia's war machine with help from U.S. adversaries," *The Wall Street Journal*, Jun. 19, 2024.

خاتمة

لا يتأتى في مقالة وجيزة متسع لاستقصاء مسألة إدخال التصاريف السياسية في قلب الاستراتيجية العسكرية، بل ولا بيان منزلتها بيانًا شافيًا. ويعسر بسط القول بما يفي الأمثلة المذكورة حقها من ذكر ما تنطوي عليه من أخطار أو فرص تلازم النظر التعاقبي أو النظر المتداخل إلى الحرب. لكن نظرة خاطفة في وقائع التاريخ القريب وأحداث اليوم تكشف أنّ الأمم الحديثة إن أرادت بلوغ مقاصدها السياسية تحتاج إلى استراتيجيات عسكرية لا تقف عند استهداف قوات العدو وحدها. فتحقيق المقصد السياسي يقتضي استراتيجيات تفضي إلى انهيار إرادة العدو و (أو) جهده، وذلك باعتبار العلائق المتراجعة القائمة بين الوقائع العسكرية والسياسية. وإذ ذاك تدرك الاستراتيجية العسكرية غايتها إن هي أحاطت بالتصاريف السياسية للحرب إحاطة تامة، فجعلت منها ركنًا أصيلًا في بنائها وتدبيرها.